الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء

واثره في بيئته وشعره

عاش شاعرُنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي — في تلك الفترات السود التي تصدّعت فيها السيادةُ العربية على مذبح الشهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبينَ منَ الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين. نعم، عاش شاعرُنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تعصف بها الزعازع وتهزها الاعاصير. فكان الحكمُ في بغداد غيرَه في مصر، وفي بلاد الشام غيرَه في القطرين المتنابذين، وهو في أقصى المغرب، في الاندلس، وفي شمال افريقية غيرُه في الاقطار العربية الثلاثة — كل شيء قد تعرّض للميوعة والتفكك، ففسدَتِ الحياةُ السياسية، وفسدتِ الحياة الاجتماعية حتى أصبحتِ الدنيا العربيةُ وكأنها على بركان.. دولٌ مختلفاتُ المنازعِ والاهداف قد انتثرت في الرُقعةِ الاسلامية الكبرى، نزعاتٌ فردية في إهاب من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر، جمعياتٌ سرية تستهدف غايات مريبة، مذاهبُ جديدة هدّامة ترمي إلى نزعاتٍ سياسية خطيرة — كل شيء قد فسد واضطرب، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرةَ الفيلسوف الانساني المتألم وقد أشفق — وهو الحكيم البعيد النظر — ان تنهار هذه الامبراطوريةُ الكبرى في الفترة التي وصلتْ فيها الحياةُ العقلية إلى الذُروة، وأن يكون لبيئته النصيبُ الأوفرُ من مأساة هذا الانهيار..

ولعلّ من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجريَ احداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الاقطار العربية الثلاثة — مصر والشام والعراق — على غرار واحد من الانشاء أو التهديم، من النظام أو الفوضى فما يجري اليومَ مثلاً من تجاوبٍ بليغ للنهوض والتحرر والتطور والتماسك كان يجري بالامس، في تلك الفترة، وفي نفس هذه الاقطار بالضدّ،

من تنافس وتناحر وتنازع وتخاذل وثورات وفتن أدّت إلى انهيار سحيق ذاق العربُ مرارته طويلاً عبرَ القرون .

هذا التنازُع الذي كان طابع الحكومات الاسلامية في عصر أبي العلاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي — ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدةً غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعةً للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمتِ العراقَ وفارسَ حكماً اوتوقراطياً فيه هذا التكالبُ على السلطةِ والمال ، وهذا التزاحم على المجد والسلطان ، وهذا الصراعُ الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذ كان للخلافة هذا السلطان الداوي في الرُقعة الاسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوةٍ من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البداهة بمكان ، وقد تقلص ظلها في بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميونَ بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التي تربطهم بآل البيت . فقد ادّعوْا هذه الوشائجَ القويةَ بين نسبهم ونسبِ فاطمةَ بنتِ الرسول ، ورغم ماقامت به بغدادُ من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبينَ إلى آل البيت في القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوةِ السيف وبريق الذهب ، وكلمة المعزّ لدين الله يذكرها كلُّ من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسبي ؟ هاكم فاقرأوه :

سلّ نصفَ سيفه من غِمده وقال لهم : هذا نسبي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسبي ! . .

ماذا كان موقفُ المعارضين من هذين البرهانين القاطعين ؟

كان جواب الجميع : السمعَ والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحتِ الخلافة في مصرَ أقوى منها في بغداد ، وأخذتِ الدعوة العباسية تنكمش في حدود ضيقةٍ بعد أن أصبح الخليفةُ الشرعي في بغداد ، العوبةً في أيدي الامراء البويهيين المتسلطين .

والشام — وأريد بيئة المعري — ماذا كان شأنها في جون هذه الاحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعلّ اقربها إلى عهده تلك الحروبُ والغزوات التي أثارها الامير سيفُ الدولة توطيداً لكيان العربي وصوناً لثغور الشام من الغزو البيزنطي . . وإذا كانت الايام لم تسعد المعري ان يرى المجد الشامخ الذي شادّه الاميرُ الحمداني في السياسة القوميّة والحياة العقلية ، فقد شاهد ، وهذا مازاد في محنته ، لوناً من ضعفِ السياسة وفساد الرأي في ابنه سعد الدولة ، وفي حفيده أبي الفضائل ، وإذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يتميز بالاحداث الخطيرة فنرجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهى حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ماوصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجدّه بل كانت مطامحه منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جدّه ، هذا يفكر بمجد امته وبلاده ، وذاك بمجده الشخصي ، والفرق جدُّ بعيدٍ بين الاتجاهين . . وإذ كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي امراء مختلفي المنازع والاهواء فقد فكر الفاطميون بضمها إلى مصرَ لاسيما بعد أن تضاءل سلطان بغداد الروحي كما تضاءل سلطانها السياسي . .

وقد عزّز هذه الفكرةَ الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقمين على حكم أبي الفضائل من جهة واغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب واطرافها من جهة اخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلةً طيبة فجهز حملةً كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمرَ هذه الحملة باحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يخضع البلادَ الشاميةَ كلها دون حلب التي امتنعتْ على مصر للخطة المزرية التي انتهجها أميرها . . ماذا ؟ استغاث أبو الفضائل بباسيل الثاني امبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك فقد اقترف أكبر غلطةٍ سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الاثيمتين مابناه الجدُّ . أي هدم هذا ؟ لقد مدّ يدّه إلى الاجنبي — تحقيقاً للنزوات الشخصية الهائجة والانانية السوداء — وقال له :

إن البلاد مفتوحةُ الصدر لكم . فهيا ادخلوها مطمئنينَ بل أن يزيلني ملك مصرِ الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . .

وتتالتِ الاحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطميين كتب فيها النصر للفاطميين أولاً ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزري لاعداء الدين واللغة والعادات والوشائج والدم . ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من هذه الاحداث بعد أن مست سلطتهم بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام فنجحوا وسقطت حلب في أيدي الفاطميين الذين قضوْا على السياسة الخرقاء التي انتهجها أبو الفضائل الذي اعتمد ، مع وزيره لؤلؤ ، على الاجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .

وهكذا ، فقد مثلت في تلك الفترة ، وفي بيئة المعري ، رواية من أفجع مآسي التاريخ ، هي نتيجة هذا الاضطراب السياسي الذي ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الاطماع تتهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ، أما أطماع الجنوب ، فمهما قيل عنها ، فهي في اعتقادي ، هينة يسيرة ، هي اطماع الفاطميين الذين يحكمون مصر ، وهم يمتون إلى العروبة بنسب عريق . . أما اطماع الشمال فهي السيفُ يحزُّ العنق — اطماع الاعداء الطبيعيين لهذه الاوطان التي حماها سيفُ الدولة فترة غيرَ قليلةٍ من مطامعهم فجاء أبو الرذائل — أريدُ حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ، ويمهد الاسباب لدخول أعظم ثغور المملكة الاسلامية .

وكتب التاريخ لتقصّ لنا هذه الفترات بما يدمي القلبَ ويدمع العين . وليس كالاديب رجل تعاف نفسه شرورَ السياسة وشرور الحروب والقتال . . وقد فكر في بقعةٍ تكون في معزلٍ عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالاً من الشام ، وهي إلى هذا كعبةُ العلم والادب ، فشدّ إليها الرحال ، ومكث فيها سنةً وبعضَ سنة فما الذي أفادَه من هذه الرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذكريات ؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي ان الانسان بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم — هو هو في جبلته وطبيعته

وان الحكام هم هم في كل مصرٍ ووطن . وانتهى إلى الرأي الذي يتلاقى وروح فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

إن العراقَ وإن الشام مذ زمن — صفران مابهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطةٌ — في كلّ مصر من الوالين شيطان

وعاد إلى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد هذا الصراع الدامي في أرضها ، وشهد ابو العلاء هذا الصراع بين احفاد الحمدانيين أو غلمانهم والمتغلبين من اعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين المرداسيين والفاطميين ، وأخيراً بين المرداسيين وغلمانهم الذين ثارت في نفوسهم شهوة الحكم أيضاً مما لايسمح المجال لان نقصّ تفاصيله باسهاب . . نعم ، شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراعَ الداميَ المتعاقب ، وبديهي ان تؤلمه هذه الاحداثُ وان يكون لعواملها الاثرُ الاكبرُ في فلسفته وأدبه .

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير ، وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهباً للاهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية وقد انتهتْ إلى ما انتهتْ إليه من الضعف والاضطراب والفوضى ، بديهي أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيعَ روحُ السخرية في هذا الادب ، وان يقسوَ قسوةً مرة على من يظهرون بصورٍ من ملائكة الرحمن بينا هم ابالسة في إهاب انسان .

لقد آلمته هذه الاحداث العاتية التي هزّتِ البلادَ العربية من أقصاها إلى أقصاها . . ولعله فكر بالنزوح عن وطنه . . ولكن إلى أين والدنيا العربية في لهيبٍ محترق من الفوضى . لقد فكر بالهجرة إلى الحجاز . . ولكن :

أما الحجاز فما يرجى المقام به — لانه بالحرار الخمس محتجز
والشامُ فيه وقود الحرب مشتعلٌ — يشبه القوم شدّتْ منهم الحجز
وبالعراق وميضٌ يستهل دماً — وراعد بلقاء الشرّ يرتجز

إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميمٌ لامقام به — وإن حللتَ ديار الويل والرهم
ان الحجاز عن الخيرات محتجز — وما تهامةُ الا معدنُ التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن — ويثربُ الآن تثريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالهجرة الى اية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره ومخازيه وقد ودَّ اكثرَ من مرةٍ الخلاص من هذا المأزق .

كيف التخلص والبسيطة لجةٌ والجوّ غيمٌ بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الانام ولا ضلال منجم

إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟ قبع في بيته ، في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة في تصوير طباع البشر — طباع اولئك المسيطرين على دفة السياسة ، المتربعين على دست الحكم وقد نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا اولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا مطية الاهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاةِ على عاتقهم وهي خدمة الشعب وانهم اجراؤه لا أسياده .

مُلّ المقام فكم أعاشر امة امرتْ بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا النفس البشرية وطواياها فوصفها أبلغ وصف ، كما وصف هذه الشهوات التي كانت لاتعرف غير النهب والاستلاب فكان رغم عزلته ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التي تشغل الشعب سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .

في الواقع ، ان ابا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ الوقور الذي يعتبرُ حكيمَ العصر وفيلسوفه بحق ، بعيداً عما يمثل على مسرح البشرية ؟ . أبداً . ان عزلته لم تحصنه عن شكاوى الافراد والجماعات ، وكانت شخصيته الفذّة تجتذب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى سجنه المتواضع ، يحلّ قضاياهم ومعضلاتهم ، ويتوسط لدى أولي الأمر برفع ظلاماتهم ، وقصةُ عصيان أهالي المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، والقائه القبض على سبعينَ شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملةٍ للقضاء على مثيري تلك الفتنة ، ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفعَ لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته ان هذه القصة تدُلّ دلالة بالغة على انه كان على اتصال بما يجري على مسرح السياسة ، وان القوم لم يتركوه يتمتع بعزلته ، وهذا ما كان له اكبرُ الأثر

في ادبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس باعماق النفس البشرية .

وفي اللزوميات وفي رسائله نقرأ الكثير من هذه اللمزات التي تصف اضطراب السياسة ، وسوء الادارة ، وفسادَ الحكم .

فالسياسة التي تسير على الاهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن ـ هي في نظره ـ سياسة خرقاء . .

واذا الرئاسةُ لم تعنْ بسياسة عقلية خطيءَ الصوابَ السائسُ

يسوسون الامورَ بغير عقلٍ فينفذُ امرهم ويقالُ ساسه
فأفٍّ من الحياة وافٍّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسه

هذه السياسةُ المضطربة التي غمرت بيئته وكلَّ بقعة من الأرض العربية هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الاهواء الجامحة . كان يشير الى روح الطغيان في نفوس المتسلطين الذين يريدون ان تخضع الرعية لأهوائهم رغم مايقومون به من مظالم .

يسود الناسَ زيدٌ بعد عمرو كذاك تقلب الدولات دوله
ومن شر البرية ربُّ ملك يريد رعية ان يسجدوا له

لقد تساءل اكثر من مرة كيف لايثور الشعب ضدّ تلك السياسه الغاشمة ؟ كيف يدفع الافرادُ الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات واللذاذات . .

وارى ملوكاً لاتحوط رعية فعلامَ تؤخذ جزية ومكوس ؟

وجدتُ الناس فيهرجٍ ومرجٍ غواةً بين مُعتزل ومرجي
فشأن ملوكهم عزفٌ ونزفٌ واصحاب الامور جباةُ خرج

أتعجب من ملوك الأرض امسوا للذات النفوس عبيد قنّ

فيالذلك العصر الذي عاش في صميمه ، لاهمّ لملوكه وزعمائه الا لذاذاتهم واهواؤهم ، والاّ مصادرة اموال الناس وإشاعة الفوضى في البلاد ، والزيغ في قرارة النفوس ـ هذا العصر المضطرب الذي عاش في اعاصيره وأهوائه قد جعله ،

ونفسه اميل الى التشاؤم ، ان ينظر الى الدنيا هذه النظرة السوداء ، وان يراها على حقيقتها ، اي ان يرى شرورها أغلب . .

عرفتُ سجايا الدهرِ اما شروره فنقدٌ ، واما خيره فوعود
اذا كانت الدنيا ، كذاك فخلها ولو ان كل الطالعات سُعود
رقدنا ، ولم نملك رُقاداً عن الاذى وقامت بما خفنا ونحن قعود

قالوا فلان جيد لصديقه لايكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالخنى وتقيهم بصلاته متصيد

لقد سئمت نفسه هذه المخازي ـ هذا التنازع على إماراتٍ كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره والتي كانت في مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها ؟ ممن لاتطمئن اليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين . . كان يرى في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلةً للسيطرة والحكم . . فما كان اصحابها ليقصدوا المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا اليها سواء منهم القرامطة او غيرهم .

انما هذه المذاهب اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

اولئك الرؤساء الذين عرف خبيئة طواياهم فازدراهم شرّ ازدراء ـ هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطامعهم الدنية وامجادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من ارهاق تستثيره وتستفز ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل اية مظلمة ، وهو الذي عاش في افق واسع من فرديته الحرة رغم سجونه الثلاثة ـ هذا الثائر الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل وعن حرية الفرد وحرية الجماعة قد اهاب بالانسان ان يثور على المظالم . وطلب الى المفكرين الذين يساهمون في سياسية الدولة ان يتحرروا هم ايضاً من الرياء الاجتماعي ، وان لايكونوا آلاتٍ مسخرة في ايدي العتاة ، يميلون مع الهوى دون أن يستجيبوا لنداء الضمير . لقد غمز الادباء والشعراء والخطباء ـ الخطباء الذين يصفون الامير بالتقوى ايام الجمع بينا هو آية في الهوى والضلال . .

ما أجهل الامم الذين عرفتهم ولعلَّ سالفهم أضلُّ واتبر
يدعون في جماعتهم بسفاهةٍ لأميرهم ، فيكاد يبكي المنبرُ

نعم ، يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائي الذي يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها لا في الشؤون السياسية بل في الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله :

طلب الحسائسَ وارتقى في ِمنبر يصف الحساب لامة ليهولها
ويكون غير مصدقٍ بقيامةٍ أمسى يمثل في النفوس ذهولها

والادباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية في هذا المصطرع الصاخب كما يؤديها هو ؟ ان رسالة الادب رسالة مقدسة لايجوز التهاونُ بها . . وكما غمز الخطباء المشعوذين فقد غمز الشعراء المدّاحين الذين يتخذون الشعر آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بني الآداب غرتكم قديماً زخارفُ مثلُ زمزمة الذباب
وما شعراؤكم الا ذئاب تلصصُ في المدائح والسباب

لقد اضطرب كل شيءٌ في نظره — اضطربت مقاييس الحياة ، واختلَّ النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة الا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تنطوي فيها خيوطُ فلسفته التشاؤمية .

قد اختلَّ الانامُ بغير شكٍّ فجدوا في الزمان أو العبوه

نعم ، كل شيءٌ عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات الكاذبة ، والانسان يخادع أخاه الانسان ، اليومَ يرتفع به إلى السماء ، وغداً ، يشك بنزاهة قصده فيهبط به إلى مواطئ الاقدام .

وكم أدّى امانته إليها امينٌ خونته وسرقته
وقائم امةٍ زكته عصراً فلما أن تمكن فسقته

هذه هي أهواء الجماعات لاتكاد ترتفع بالرجل الذي احبته حتى تهبطَ به الأرض ، لاتكاد تؤلهه وتعتبره رمزاً للامانة حتى تتنكرَ له وتعتبره رمزاً للخيانة !

وبعد فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة ..

ولكن هل هذه الآراء الا صورة ذلك العصر المليء بالمخازي والموبقات ، مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغُ أثر في انهيار الامة العربيه — ذلك الانهيار الذي ذاقت مرارته العصورَ الطوال . . نعم ، كدنا ننتقل من تصوير الاضطراب في عصره السياسي إلى آرائه في الحياة — تلك الحياة التي سئم أوضارها وأضاليلها فنظر إليها هذه النظرةَ الفلسفيةَ المتعالية . . كيف يحتمل هذه المخازي ؟ كيف يدفع هذا الطغيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر — هذا الينبوع الثرّ الذي يبرد غليل الموتورين المتشائمين .

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واحناسها
والشر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرُنا الحكيم في سجوف هذا اليأس الحزين يهدِم وينقدُ ويهاجم هل كانت له رسالة في الحياة ؟ مالون هذه الرسالة ؟ كيف كان يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير المحض ، وأراد له العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهناءة المثلى للبشرية فهل تحققت رسالته ؟ ابداً . . فقد اصطدمت هذه الميولُ الطيبة بغريزة الانسان ونزْعته الشريرة — فتراءت له الدنيا ، في مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الاحداث التي واجهت عصرَه — صورةً من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة — تلك العزلة التي انتجتْ للادب الحي ثروة خالدة ترمز إلى جبروت العقل العربي الذي لايقل في خياله وابداعه عن أسمى العقول التي عرفتها آداب البشرية .

فاذا أضفنا إلى عزلته هذه الحياة الجافة القاسية المملولة التي عاشها في سجنه الضيق خمسين عاماً ، بعيداً عن المباهج والاضواء واللذاذات ، والشرور التي أصابت عصرَه وما كان لها من أثرٍ سيء في بيئته ، ثم تلك المحنة التي بلي بها وهو في الرابعةِ من عمره ، ومزاجه السوداوي الكئيب ، وشكوكه الفلسفية القلقة — علمنا ما كان لهذه الحياة من أثر في أدبه — هذا الادب

العلائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الامم الحية ، والذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتلاقى مع أصدق ماخلده أكابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، اننا نجد مثلاً في حدائق أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شوبنهور وسخرية اناتول فرانس والكثيرَ من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في عصرنا هذا ، ففلسفته لم تقف عند واحات الزُهد والعزلة بل تعدّتها إلى الاخلاق والسياسة والاجماع والدين والانسان والخالق فأبدى رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، ماظهر منها وما استتر ، حتى الاشتراكية التي عرفتها مذاهب القرن العشرين — فكان شاعراً فيلسوفاً يعكس في شعره كلّ النزعات التي يحسها المفكر الحر الذي سما بنزعاته فوق كل القيود التي فرضتها عليه مواضعاتُ عصره ، وهكذا ، فقد كان لنا من لزومياته ، والعوبته ، وفصوله وغاياته والكثير من رسائله هذه الثروةُ الضخمةُ التي تشغل في رحاب الفكر الانساني مكاناً رفيعاً .

* * *

أيها السادة

ان مجد الامم يقوم على مايتركه ادباؤها ومفكروها من تراث ثمين ، وقد ترك المعري لامته أضخم تراث أدبي ، فاذا احتفت الدنيا العربية بذكرى مولده الالفي فانها تحتفي بتراثها الذي خلد على الاجيال — بذكرى رجل اقتعد مكانته السامقة إلى جانب عباقرة الادباء العالميين الذين قام مجدهم على الصدق لا على الشعوذة ، وعلى جمال الفكرة ونبل الشعور ، أحسّ فتألم فأملى ، حتى هذه الأبياتُ المتفرقةُ التي وصف بها لوثات عصره — كافية الدلالة على ما كان يجيش به صدرُه من ميولٍ صادقةٍ ونزعات سامية في سبيل الخير والحق والجمال — الخير الذي كان يصدُمه الشر ، والحق الذي كان يغلبه الباطل ، والجمال الذي كانت تلطخه البشاعة — بشاعة الغرائز الدنية التي تدفع الانسان إلى تشويه الحقائق في سبيل الانانية الحمقاء — تلك الانانية التي كانت من أقوى العوامل في انهيار السلطان العربي الذي واجهه عصر أبي العلاء .

سامي الكيالي